تقهقر بطريركية القسطنطينية

القديس يوحنا ماكسموفيتش

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

هذا المقال هو جزء من تقرير عن الكنائس المستقلة أعده رئيس الأساقفة القديس يوحنا ماكسيموفيتش للقاء الشتات الثاني للكنيسة الروسية في الخارج، الذي انعقد في يوغوسلافيا عام ١٩٣٨. إنه يقدّم الخلفية التاريخية للحالة البطريركية القسطنطينية في ذلك الزمان. من المثير في هذا المقال أنه لو كُتب اليوم، باستثناء بعض النقاط الصغيرة التي تغيرت منذ ذلك الحين، إلا أن الأعمال والتصريحات "المسكونية" الأكثر إثارة للبطريركية في السنوات الأخيرة تضيف إليه الكثير. فالكثير من الأرثوذكسيين المخلصين يرون أن "المشهد المثير للشفقة" الذي يصفه القديس هنا، قد ازداد رداءة حتى صار يُنظَر إلى القسطنطينية كأحد مراكز العالم الرائدة في مناهضة الأرثوذكسية.

لكنيسة روما الجديدة، القسطنطينية، الأوليّة بين الكنائس الأرثوذكسية، ويرأسها بطريرك يحمل لقب "المسكوني"، وبالتالي تسمى البطريركية المسكونية، وقد وصلت إقليمياً إلى ذروة نموها في نهاية القرن الثامن عشر. في ذلك الوقت، ضمّت آسيا الصغرى بأكملها، وشبه جزيرة البلقان بأكملها (باستثناء الجبل الأسود)، إلى جانب الجزر المجاورة، وأُلغيَت الكنائس المستقلة الأخرى في شبه جزيرة البلقان وأصبحت جزءاً من البطريركية المسكونية. كان البطريرك المسكوني قد تسلم من السلطان التركي، حتى قبل استيلاء الأتراك على القسطنطينية، لقب ميليت بارب، أي رأس الملة، وكان يُعتَبر رأس كل السكان الأرثوذكس في الإمبراطورية التركية. ومع ذلك، فإن هذا لم يمنع الحكومة التركية من إزاحة البطاركة لأي سبب كان والدعوة إلى انتخابات جديدة وتحصيل ضريبة كبيرة من البطريرك المنتخب حديثاً. على ما يبدو، كان لجباية الضرائب أهمية كبيرة في تغيير الأتراك للآباء. لذلك، غالباً ما كانوا يسمحون لبطريرك أزالوه أن يعود إلى العرش البطريركي، بعد وفاة واحد أو أكثر من خلفائه. وهكذا، اعتلى العديد من البطاركة الكرسي عدة مرات، وكان كل اعتلاء مصحوباً بتحصيل الأتراك لضريبة خاصة منهم.

لتعويض المبلغ المدفوع لتولي العرش البطريركي، كان البطريرك يقوم بتجميع مجموعة من المطارنة التابعين له، وهم بدورهم يقومون بجمع المال من الكهنة التابعين لهم. هذه الطريقة في تكوين الموارد المالية تركت بصمةً على مجمل حياة البطريركية. في البطريركية، كانت "فكرة اليونان العظمى" جليةً، وهي محاولة استعادة بيزنطية، في البداية بمعنى ثقافي، ولكن لاحقاً بالمعنى السياسي. لهذا السبب، كان يُعيّن أشخاص موالون لهذه الفكرة في جميع المناصب المهمة، وفي الغالب يونانيون من منطقة في القسطنطينية تُسمى الفنار، وفيها توجد أيضاً البطريركية. بشكل شبه دائم، كان اليونانيون يملؤون الكراسي الأسقفية، على الرغم من أن السكان في شبه جزيرة البلقان كانوا في المقام الأول من السلاف.

في بداية القرن التاسع عشر، بدأت حركة تحرّر، بين شعوب البلقان التي كانت تسعى جاهدة لتحرير نفسها من سلطة الأتراك. فنشأت دول صربيا واليونان ورومانيا وبلغاريا، شبهَ مستقلة في البداية، ثم مستقلة بالكامل عن تركيا. وبالتوازي مع ذلك، تشكّلت كنائس محلية جديدة منفصلة عن البطريركية المسكونية. بالرغم من عدم رغبتهم، وتحت تأثير الظروف، فقد سمح البطاركة المسكونيون باستقلالية الكنائس في تلك الأمارات. لاحقاً، اعترفوا بالاستقلال الكامل للكنائس في صربيا واليونان ورومانيا. المسألة البلغارية كانت معقدة بالنظر إلى نفاد صبر البلغار، الذين لم يكونوا قد حصلوا بعد على الاستقلال السياسي، ومن ناحية أخرى، بسبب عناد اليونانيين. لم تعترف البطريركية بإعلان الاستقلال الذاتي البلغاري على أساس فرمان السلطان، وقد أدى ذلك إلى قيام رئاسات موازية في عدد من الأبرشيات.

تطابقت حدود الكنائس التي تشكّلت حديثاً مع حدود الدول الجديدة، والتي كانت تنمو طوال الوقت على حساب تركيا، وفي الوقت نفسه حصلت على أبرشيات جديدة من البطريركية. ومع ذلك، في عام ١٩١٢، عندما بدأت حرب البلقان، كانت البطريركية المسكونية تضم حوالي سبعين أبرشية والعديد من الأساقفة. انتزعت حرب ١٩١٢-١٣ جزءاً كبيراً من شبه جزيرة البلقان من تركيا مع ما فيها من مراكز روحية عظيمة كتسالونيكي وآثوس. الحرب الكبرى بين ١٩١٤-١٩١٨ حرمت تركيا لبعض الوقت من تراقيا بكاملها وساحل آسيا الصغرى مع مدينة إزمير، والتي خسرتها اليونان لاحقاً في ١٩٢٢، بعد فشل الزحف اليوناني إلى القسطنطينية.

هنا عجز البطريرك المسكوني أن يحرر بسهولة من سلطته الأبرشيات التي كانت قد سبق انفصالها عن تركيا. جرت محادثات حول بعض الأماكن التي كانت في الماضي تحت السلطة الروحية للقسطنطينية. ولكن عاد البطريرك المسكوني واعترف في عام ١٩٢٢ بضم جميع المناطق داخل حدود يوغوسلافيا إلى الكنيسة الصربية. كما وافق على ضمّ عدد من الأبرشيات في الدولة اليونانية إلى كنيسة اليونان، مع الاحتفاظ بسلطته على آثوس. في عام ١٩٣٧، اعترف حتّى بالاستقلال الذاتي للكنيسة الألبانية الصغيرة، والتي لم يكن قد اعترف بها في الأصل.

تراجعت حدود البطريركية المسكونية وعدد أبرشياتها بشكل ملحوظ. في الوقت نفسه، خسرت البطريركية المسكونية في الواقع آسيا الصغرى أيضاً، على الرغم من بقائها ضمن سلطتها. إذ بحسب اتفاقية السلام بين اليونان وتركيا في عام ١٩٢٣ جرى تبادل السكان بين الدولتين، بحيث اضطر جميع السكان اليونانيين في آسيا الصغرى إلى النزوح وإعادة التوطين في اليونان. المدن القديمة، التي كانت ذات مرة ذات أهمية كبيرة في الأمور الكنسية ومجيدة في تاريخ كنائسها، صارت بدون مقيم واحد على الإيمان الأرثوذكسي. في الوقت نفسه، فقد البطريرك المسكوني أهميته السياسية في تركيا، إذ حرمه كمال باشا من لقبه كرئيس للملّة. في الواقع، الآن، يقع تحت سلطة البطريرك المسكوني خمس أبرشيات داخل حدود تركيا، بالإضافة إلى آثوس مع الأماكن المحيطة بها في اليونان. يواجه البطريرك عقبات شديدة في إظهار حقه الذي لا جدال فيه في إدارة الكنيسة داخل حدود تركيا، حيث يُنظر إليه على أنه مسؤول تركي تابع للدولة، يخضع لإشراف الحكومة. تتدخل الحكومة التركية في جميع جوانب حياة مواطنيها، والامتياز الخاص الذي سمحت به للبطريرك

الأرثوذكسي كما للبطريرك الأرمني، هو الشعر الطويل والملابس الكنسية، فيما يحظّر ذلك على بقية الكهنة. لا يحق للبطريرك الخروج بحرية من تركيا، وفي الآونة الأخيرة تسعى الحكومة بإصرار أكثر من أي وقت مضى إلى نقله إلى العاصمة الجديدة أنقرة (أنقيرا القديمة)، حيث لا يوجد مسيحيون أرثوذكس، ولكن حيث تتركز الإدارة مع جميع فروع الحياة الحكومية.

هذا الامتهان الخارجي لمدينة القديس قسطنطين، التي كانت في يوم من الأيام عاصمة المسكونة، لم يزعزع توقيرها بين المسيحيين الأرثوذكسيين، الذين يجلّون كرسي القديسين يوحنا الذهبي الفم، وغريغوريوس اللاهوتي. من أوج هذا، يستطيع خليفة القديسين يوحنا وغريغوريوس أن يرشد روحياً العالم الأرثوذكسي بأسره، فقط إذا كان يمتلك ثباتهم في الدفاع عن الحق والبِرّ واتساع الرؤية كالبطريرك الأخير يواكيم الثالث. لكن، إلى التدهور العام للبطريركية المسكونية أُضيف اتجاه نشاطها بعد الحرب العظمى. لقد رغبت البطريركية المسكونية في التعويض عن فقدان الأبرشيات التي خرجت من سلطتها، كما فقدان أهميتها السياسية داخل حدود تركيا، من خلال ضمّها لمناطق لم يكن فيها رئاسات أرثوذكسية حتى ذلك الوقت، كما كنائس الدول التي حكوماتها غير أرثوذكسية. وهكذا، في ٥ نيسان ١٩٢٢، عين البطريرك ميليتيوس إكسارخوساً (وكيلاً) في أوروبا الغربية والوسطى بلقب مطران ثياتيرا مقيماً في لندن. في ٤ آذار ١٩٢٣، كرس البطريرك نفسه الأرشمندريت التشيكي ساباتيوس رئيس أساقفةٍ لبراغ وسائر تشيكوسلوفاكيا؛ في ١٥ نيسان ١٩٢٤، تأسست ميتروبوليّة هنغاريا وسائر أوروبا الوسطى وكرسيها في بودابست، على الرغم من وجود أسقف صربي هناك. في أمريكا، تم تأسيس أبرشية تابعة للكرسي المسكوني. ثم في عام ١٩٢٤ تم إنشاء أبرشية في أستراليا مركزها في سيدني. في عام ١٩٣٨، أصبحت الهند تابعة لرئيس أساقفة أستراليا.

في الوقت نفسه، تقدم الكرسي المسكوني نحو إخضاع أجزاء منفصلة من الكنيسة الأرثوذكسية الروسية تمّ انتزاعها بعيداً عن روسيا. وهكذا، في ٩ حزيران ١٩٢٣، قبِل البطريرك المسكوني أبرشية فنلندا ككنيسة فنلندية مستقلة ضمن سلطته. في ٢٣ آب ١٩٢٣، تم إخضاع الكنيسة الإستونية بنفس الطريقة؛ في ١٣ تشرين الثاني ١٩٢٤، اعترف البطريرك غريغوريوس السابع باستقلال الكنيسة البولندية كتابعة للبطريركية المسكونية، مع استقلال ذاتي. في آذار ١٩٣٦، قبِل البطريرك المسكوني لاتفيا في سلطته. لم يقتصر الأمر على قبول الكنائس في المناطق التي انتُزعَت عن حدود روسيا، فقَبِل البطريرك فوتيوس المتروبوليت أفلوجيوس في أوروبا الغربية مع الرعايا التابعة له، وفي ٢٨ شباط ١٩٣٧، سام رئيس أساقفة الأبرشية المسكونية في أمريكا الأسقف ثيودور بوغدان شبيلكو رئيساً للكنيسة الأوكرانية في أمريكا الشمالية.

وهكذا، أصبح البطريرك المسكوني "مسكونياً" [عالمياً] من حيث اتساع المنطقة التابعة له نظرياً. إن الكرة الأرضية كلها تقريباً، باستثناء الأراضي الصغيرة للبطريركيات الثلاثة وأراضي روسيا السوفييتية، بحسب فكرة قادة البطريركية، تدخل في تكوين البطريركية المسكونية. ومع ازدياد رغباتهم بلا حدود في إخضاع أجزاء من روسيا، بدأ بطاركة القسطنطينية في إعلان عدم قانونية ضم كييف إلى بطريركية موسكو، وإعلان أن الميتروبولية الجنوبية الروسية الموجودة سابقاً في كييف يجب أن تتبع للقسطنطينية. وجهة النظر هذه تمّ

التعبّير عنها بوضوح في توموس (كتاب) في ١٣ نوفمبر ١٩٢٤ حول انفصال الكنيسة البولندية، كما أن بطاركة القسطنطينية كانوا يروّجون لها. وهكذا، فإن نائب المطران أفلوجيوس في باريس، الذي تمت سيامته بإذن من البطريرك المسكوني، قد أتّخذ لقب أسقف خيرسون، ما يعني أن تشيرسونيز، الموجودة الآن في أراضي روسيا، تخضع للبطريرك المسكوني. الخطوة المنطقية التالية للبطريركية المسكونية هي إعلان كل روسيا تحت ولاية القسطنطينية.

ولكن القوة الروحية الفعلية وحتى الحدود الفعلية للسلطة تختلف إلى حد بعيد عن هذا التعظيم الذاتي للقسطنطينية. ناهيكم عن حقيقة أن سلطة البطريرك في كل مكان تقريباً وهمية ولا تتعدى في معظمها تثبيت الأساقفة الذين تم انتخابهم في أماكن مختلفة أو إرسال مثل هؤلاء من القسطنطينية، كما أن العديد من الأراضي التي تعتبرها القسطنطينية تحت سلطتها ليس فيها رعايا على الإطلاق.

وعلى المنوال نفسه، فإن السلطة الأخلاقية لبطاركة القسطنطينية قد تراجعت للغاية بسبب عدم التزامهم الثابت بالأمور الكنسية. وهكذا، رتب البطريرك ميليتيوس الرابع "مؤتمر عموم الأرثوذكس" مع ممثلين عن كنائس مختلفة، وفي هذا المؤتمر صدر المرسوم بإدخال التقويم الجديد. هذا المرسوم، الذي لم يعترف به سوى جزء من الكنيسة، أحدث انقساماً مخيفاً بين المسيحيين الأرثوذكس. اعترف البطريرك غريغوريوس السابع بمرسوم مجلس الكنيسة الحية بشأن خلع البطريرك تيخون، الذي أعلنه مجمع القسطنطينية قبل ذلك بوقت قصير "معترفاً"، ثم دخل في شركة مع "التجديديين" في روسيا وما زال حتى الآن.

بالخلاصة، من الناحية النظرية، تحتضن البطريركية المسكونية الكون كله تقريباً، أما في الواقع فإن سلطتها لا تغطي إلا عدداً من الأبرشيات، وفي أماكن أخرى ليس لديها سوى إشراف سطحي حيث تحصل على عائدات معينة لذلك؛ لقد اضطهدتها الحكومة في الداخل ولا تدعمها أي سلطة حكومية في الخارج؛ إن مشهد القسطنطينية وقد فقدت أهميتها كدعامة للحقيقة وتحولت إلى مصدر للانقسام، فيما يمتلكها في الوقت نفسه حب مفرط للسلطة، هو مشهد مثير للشفقة يستذكر أسوأ الفترات في تاريخ كرسي القسطنطينية.

تعليق

ظهر السلوك المعادي للأرثوذكسية في القسطنطينية منذ تولي ميليتيوس ميتاكساكيس ذلك الكرسي، واتّخذ أشكالاً مختلفة فاضحة مع البطريرك أثيناغوراس واستمر مع البطريرك ديمتريوس وصولاً إلى البطريرك الحالي برثلماوس. من الحق اليوم القول أن ما نشهده من انحراف قسطنطيني سواء في الانخراط المسكوني الأعمى أو التدخل في شؤون الكنائس الأخرى والاتكاء على السلطان الأميركي لتظهير انقسام العالم الأرثوذكسي إلى سلافي ويوناني، وآخر الابتداعات كان ما جرى في أوكرانيا والذي تشهد الحرب القائمة أنه كان جزءاً من المخطط السياسي الأميركي، ومن ثم مرور تعميد رئيس أساقفة أميركا لطفلين يتبناهما زوجان مثليان، وما يحمل غض النظر هذا من قبول لزواج المثليين وإعطائهم حق التبني، كل هذا لا يحجب حقيقة أن هذا الارتداد ليس من عمل برثلماوس وحده بل هو تتويج لعملية ارتحال القسطنطينية الطويلة والشاملة عن إيمان الكنيسة الأرثوذكسية وتقليدها.

مُنح لقب "مسكوني" لبطريرك القسطنطينية نتيجة نقل عاصمة الإمبراطورية الرومانية إلى هـذه المدينـة في القرن الرابع وأصبح البطريرك أسقف المدينة التي كانت مركز العالم المسكوني أو المتحضر. للأسـف، في القـرن العشرين، حاول كرسي القسطنطينية المجيد، بعد أن فقد مجـده الأرضـي لفـترة طويلـة بثمن بخس، اسـتعادة المكانة من خلال الدخول في مسارين "مسكونيين" جديدين: الانغماس في "الحركة المسـكونية" الـتي تقـوم على أساس عـالمي منـاهض للمسـيحية، والسـعي إلى إخضـاع الكنـائس الأرثوذكسـية الأخـرى لنفسـها وجعـل بطريركها بابا الأرثوذكسية.

الهدف من نشر هذا المقال هو تسـليط الضـوء على هـذه المسـارات الـتي تجمّـد الأرثوذكسـية اليـوم. لكن هـذا الجمود سوف يكون قاتلاً في لحظة ما، خاصة مع اقتراب ٢٠٢٥ التي تحمل مشاريع وحدة مع الكثلكـة، لن ينتج منها للأرثوذكسية إلا المزيد من الانقسامات، ليس على مستوى الكراسي فقط بل على مستوى داخـل الكنـائس المحلية. على الأرجح أن أنطاكيا لن يصيبها هذا الانقسام لأن مجمعها في مـركب مسـكوني واحـد وبالتـالي مـا سوف تشهده هو بعض الانتقالات الفردية إلى الكنائس التي لن تنخرط في مسار الوحدة المحروقة هذا. طبعـاً، هذا التقدير يقوم على أساس علوم هذا العالم، يبقى أن الروح يعمل حيث يشاء.